

الشباب قراءة سوسيونفسية في براديغمت النشأة والتطور

*Socio-psychological reading of youth in the paradigms of birth and development*1. حيفاشابي، المعهد العالي للتنشيط الشبابي والثقافي ببئر الباي -جامعة تونس - تونس chabihaifa@gmail.com (حيفا شابي Haifa Chabi -)

تاريخ النشر: 2023/12/30

تاريخ القبول: 2023/05/19

تاريخ الإرسال: 2023/04/10

ملخص:

يبحث هذا المقال عن جذور الاهتمام بالمسألة الشبابية وذلك عبر البحث عن الخلفيات النظرية من خلال دراسة المقاربة السوسيونفسية للشباب. إذ يعتبر بروز العلوم الاجتماعية وخاصة بروز علم النفس في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ذو دور كبير في جعل مبحث الشباب يحتل مكانة بارزة لكي يصبح مجال معرفة علمية فعند البحث أكثر عن جذور النشأة نجد، أن بداياته كانت في الولايات المتحدة الأمريكية ومن أبرز المدارس الاجتماعية، التي اهتمت بدراسة الشباب نجد مدرسة شيكاغو وهي تيار بحثي أمريكي، ينطلق من مقولة اللانظام الاجتماعي من أجل فهم الانحراف الشبابي. هذا ما يعكس أن اهتمام الباحثون بتتبع المجموعات والزمير أو العصابات الشبابية يهدف إلى الكشف عن السلوكيات الجديدة لدى هذه الفئة. فالدراسات الميدانية أكدت، أن الشباب هم الذين يقفون وراء التغيير الاجتماعي. كما اعتنت هذه المدرسة، بالعلاقات داخل الجيل الواحد، والعلاقات بين الأجيال. وانتهوا بتحديد مفهوم الشباب، في إطار العلاقة بين الأجيال. كما قاموا بدراسة "الثقافة الشبابية"، وملاحظة مدى قدرة المبادئ والقيم على إدماج الشباب (مفهوم الثقافة المهمة)، وكذلك إمكانية تحصيل معارف جديدة، والعيش ضمن ظروف أفضل عبر تطوير مجالات بحث وفروع معرفية. كخلاصة لذلك يمكن القول أن هذه الورقة العلمية تبحث عن مقاربة الشباب من خلفيات براديغمية أساسها علم النفس و علم الاجتماع.

كلمات مفتاحية: الشباب ; البراديغم السوسيولوجي ; البراديغم النفسي ; النشأة ; مراحل التطور .

تصدر عن كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعزير بيج



Abstract:

This article explores the roots of interest in the subject of youth by seeking theoretical foundations by studying the social-psychological approach to youth. The emergence of the social sciences, particularly psychology in the late nineteenth and early twentieth century's, is considered to have played a major role in bringing the subject of youth to prominence and becoming a field of scientific knowledge. Going deeper into the roots of its education, one of the most important social schools that focused on the study of youth is the Chicago School, which is an American research current, based on the concept of social disorder to understand juvenile delinquency. This shows that the interest of researchers in monitoring youth groups, cliques or gangs aims at revealing new behaviors within this group. Field studies have confirmed that it is the youth who are the drivers of social change. This school also looked at intra- and inter-generational relationships. They eventually defined the concept of youth in the context of intergenerational relations. They also studied "youth culture" and found out to what extent principles and values are able to integrate young people (concept of dominant culture), as well as the possibility of acquiring new knowledge and living in better conditions through the development of youth culture.

Keywords: Youth - the sociological paradigm - the psychological paradigm - growing up - stages of development.

مقدمة:

في حاضرنا لا أحد يشك في علمية الفلك و الفيزياء و الكيمياء و البيولوجيا و لا أحد يستطيع التشكيك في خطوتها و ما تقدمه للمجتمع من خدمات ففي مقابل حظوة العلوم الطبيعية او المادية نجد

تصدر عن كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة محمد البشير الابراهيمي برج بوعريريج



الترقيم الدولي الإلكتروني 2773-2592

الرقم الدولي المعياري 2602-702X:ISSN

الايداع القانوني: ديسمبر 2017

السوسيولوجيا التي تهدف دائما الى انتاج معرفة مختلفة عن الايديولوجيا من اجل تحقيق الموضوعية. فاذا ما قلنا ان العلم هو الاستخدام المنظم لوسائل البحث الامبريقي او تحليل البيانات و التقييم المنطقي للحجج لتطوير النصوص المعرفية حول الموضوع معين فانه يمكن اعتبار علم الاجتماع علما رغم اليقين بعدم امكانية نمذجته مباشرة على العلوم الطبيعية , لان دراسة السلوك الانساني تختلف جوهريا عن دراسة العالم الطبيعي المادي وهذا ما جعل علماء الاجتماع يقدمون تفسيرات متباينة و مختلفة و احيانا متناقضة و متطابقة لأسباب هذا الاختلاف تكمن في اختلاف جملة الأهداف و الوسائل التي يستخدمها علماء الاجتماع كاختلاف المناهج و المداخل و النظريات إذ انه -أي خلفية نظرية- تشتمل على مداخل عديدة و متنوعة " فالنظرية هي الأساس المفاهيمي للمعرفة حيث تساعدنا النظريات على شرح الظواهر و التنبؤ بها كما أنها تساعدنا على صنع قرارات علمية ذكية " أفهي بناء لتفسيرات مجردة يمكن استخدامها لشرح مواقف امبريقية متعددة و متنوعة فالصعوبات التي تواجه الباحث في علم الاجتماع بسبب المشاكل المعقدة المتعلقة بوضع السلوك الإنساني تجعل منه قيد الدراسة و البحث فكما يقول كلود برنار "الحادث يأتي بالفكرة والفكرة تقود إلى التجربة وتوجهها و التجربة تحكم بدورها على الفكرة"². كما اعتبر علم الاجتماع مشروع علمي له أكثر من 100 سنة من الوجود و ككل العلوم فهو يسير في مسار متطور باستمرار حيث أسهم في تطور التفكير الاجتماعي على مر القرون القليلة الماضية عدد من المنظرين و الباحثين أمثال اوغست كونت 1798-1857 و ايميل دوركهايم 1857-1917 و كارل ماركس 1818-1883 و ماكس فيبر 1864-1920 و غيرهم

يمكن القول إذن "أن علم الاجتماع هو الدراسة المنتظمة للمجتمعات الإنسانية بتركيز خاص على الأنساق الصناعية الحديثة و مجال علم الاجتماع واسع جدا" و يدرس علماء الاجتماع كل العلاقات

الإنسانية و الجماعات و المؤسسات و المجتمعات و علاقات الزواج و الصحة و المرض و التواصل الاعلام القيم و الأخلاق , الاقتصاد , السياسة و الثقافة و غيرها .
و قد أصبح الاجتماعي يتطلب النظر و البحث و ذلك لأنه مثل أرضية خصبة أثارت العديد من الإشكاليات والأسئلة مما أدى إلى بزوغ ظواهر و حالات تتطلب استنفار الآليات العلمية للفهم و التفسير, هذا ما جعل الدراسات السوسيولوجية العصرية تكون دراسات ديناميكية و متعددة الاختصاص حيث أنها تدرس الواقع في حركية و تفاعلات داخلية و خارجية لتصير أكثر اقترابا من قضايا المجتمع و تواكب إفرازاته .
فقد صارت السوسيولوجيا ذات جدوى و حضور فعلي و كثيف في العلوم الإنسانية و أصبح علم الاجتماع يعمل على دراسة السلوك اليومي في مواقف التفاعل من جهة و على تحليل الأنساق الاجتماعية الكبرى من جهة أخرى .

اعتبرت السوسيولوجيا علما يكتسح مختلف مجالات الحياة ليصل إلى احتواء معرفي لمختلف الظواهر الاجتماعية هذا ما جعل من السوسيولوجيا علما متفرعا هو تراكم إفرازات المجتمع فالاجتماعي يهدف إلى تقديم تفسير عام لأسئلة لماذا فعندما يطالب العلماء بتفسير حدث او سلوك ما فانهم يطالبون بتحليل نظامي و تجريبي للعوامل السابقة التي سببت هذا الحدث . يرى Kuhn ان الأبحاث قادرة على ان تشارك الإنجازات التي تعرضها فتجذب بذلك المهتمين مما ينتج أنواعا جديدة من المشكلات مما يتطلب إعادة التعريف و الحل حيث اطلق Kuhn على هذه الإنجازات بمصطلح النماذج المعرفية Paradigms التي تحدد تفاعلات المشهد المجتمعي . إذ يعتبر البراديغم منوالا من المقاربة النظرية للواقع الاجتماعي و يمكن أن نعتمد على أكثر من نموذج تفسيري لفهم الواقع كما يمكن أن يكون الواقع مصدرا لبناء أكثر من باراديغم فكم من ظاهرة إجتماعية تحولت إلى مجال

تتفاعل فيه البراديجمات النسقية الكلية "فالنظرية" في علم الاجتماع كما في غيره في العلوم الأخرى، المحك العلمي الذي يفسر لنا كافة الحقائق FACTS التي أمكن ملاحظتها بأساليب ووسائل عامة للوصول إلى نتائج ملموسة وواقعية³ فالبراديجم هو كل فضاء فكري يقدم تعريفاً للظواهر الاجتماعية لذلك فإن العديد من الباحثين "اعتبروا أن كل تحليل سوسيولوجي هو في النهاية تحليل لاجتماع البشري"⁴. من هذا المنطلق تعتبر النظرية عنصراً أساسياً في بناء معمار البحث "فالنظرية تساعدنا إلى الوصول إلى نوع من المفاهيم والمقولات والقضايا و الافتراضات التي من خلالها نواجه مشكلات الدراسة"⁵.

1- الإشكالية :

يتنزل العمل في محور براديجم علم اجتماع الشباب بدرجة أولى حيث يعنى بدراسة أوضاع الشباب في مختلف المجالات و ربطها بمعطيات المحيط الاجتماعي إذ "يستخدم العلماء النماذج لتمثيل بعض جوانب العالم الواقعي بشكل نظامي فالنماذج هي تجريدات تعمل على تنظيم و تبسيط رؤيتنا للواقع ... كما يستخدم العلماء النماذج لتعميق رؤيتهم لظاهرة لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر"⁶. هذا ما يدفعنا إلى طرح الإشكالية التالية :

كيف تم توظيف هذه المقاربات النظرية لبناء خلفية سوسيونفسية للشباب ؟

2- الشباب بين الخلفية السوسيولوجية والنفسية

لقد تم تناول ظاهرة الشباب بصور مختلفة في الحقل السوسيولوجي بالنظر إلى الأدبيات المرجعية لهذا الحقل المعرفي تعود بنا البدايات الأولى للاهتمام بفئة الشباب إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر

مع الأفكار التي قدّمها لنا إميل دوركهايم في كتابه السوسيولوجيا والتربية حينما يقول: "التربية هي التنشئة الاجتماعية الممنهجة لجيل الشباب"⁷ يمكن بفضل هذا التعريف أن نفتح الطريق الفعلي لسوسيولوجيا الشباب، حيث يبدأ الحديث عن الطفل كمرحلة عمرية متميزة باعتباره كائناً لا اجتماعياً لم يتسلم بعد الخطوط التي تمحى في الإكراه الاجتماعي المخزن ولم تتمّ بعد عملية التمرن على الإخضاع الضروري للقوانين المكتوبة وغير المكتوبة التي تسير المجتمع، لكن التربية هي التي ستقوم بدورها على محو هذا الغطاء البيولوجي لتنتقل به ككائن والتناقضات الخاصة به.

يبدو أنّ التناول السوسيولوجي لهذه الفئة بقي ضئيلاً بعد هذه المحاولة مما فسح المجال لاهتمامات أخرى، حيث أحدثت الأنثروبولوجيا منعطفا مهما بإعادة النظر في بعض المقولات الخاصة بالمراهقة، ومن أبرز المساهمين في هذا المجال نجد مارغريت ميد، حيث تنطلق من دراستها لبعض القبائل البدائية (المانوس) و(الساموا) في نهاية العشرينات من الإقرار بحدثة ظاهرة المراهقة في المجتمعات المعاصرة وهذا عن طريق عقد مقارنات بين المجتمع الأمريكي الذي ظهرت فيه مشاكل المراهقين نظراً لطبيعة هذا المجتمع الذي يتميز بتعدد أنماط السلوك وتعارضها وكثرة الجماعات الدينية والوضع الاقتصادي المتقلب من جهة ومن جهة أخرى نجد القبائل البدائية السالفة الذكر التي لم تعرف ظاهرة المراهقة "نظراً لبساطة المجتمع وسهولة المرور إلى سن الشباب وقلة البدائل أيضاً والمساواة في معاملة الجنسين والمعرفة المتاحة للجميع والاستقلالية المتمثلة في عدم تبعية الأبناء للوالدين وإمكانية الانصهار في إطار الجماعة"⁸.

تؤكد الأنثروبولوجية مارغريت ميد في دراستها لقبائل ساموا على "الاختلاف الحاصل في سلوك الشباب وفق المجتمع الذي يعيشون فيه ووفق ثقافة ذلك المجتمع، فأزمة المراهقة والشباب التي تلوح بقوة في

المجتمع الرأسمالي تكاد لا تبين في هذه القبائل نظرا لبساطة هذا المجتمع وسهولة المرور إلى سنّ الشباب" ⁹. فالشباب "في ساموا ليس هو الشباب في أمريكا وليس هو الشباب في العالم العربي وهو يختلف عن شباب القرون الوسطى الذين كانوا يجدون أنفسهم مضطرين إلى الانقطاع عن العالم لخدمة الإله، كما يختلفون عن شباب الهنود الذين يضطرون إلى قطع أصابعهم كقربان ديني" ¹⁰. تتمثل خلاصة أبحاث مارغريت ميد في إعلان نتيجة هامة مفادها أنّ مشكلة الشباب لا ترتدّ إلى عامل داخلي فهي نتيجة الاضطهاد من الخارج ومن مجموع القيم والعادات، فالأزمة ليست أزمة هوية تنشأ من عدم فهم الذات الجديدة بل هي أزمة حضارية في جوهرها. وهكذا، فإنّ السلوك الاجتماعي للشباب "يمكن أن يكون نتاجا لتفاعل قواهم العضوية المزاجية والوجدانية والعقلية مع مؤثرات البيئة والثقافة التي يعيشون فيها" ¹¹. ففي هذه المرحلة العمرية، فترة الشباب، يتمازج الجانب السيكلولوجي والفيزيولوجي مع البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمعات المحلية. بالتالي تتلخص دراسة ميد في انتقالها إلى الجانب الثقافي للشباب "حيث انتقل البحث في المسألة الشبابية إلى الجاني الثقافي ... وصرنا نتحدث عن "ثقافة فرعية للشباب" و"عن فجوة بين الأجيال" ¹².

3-الشباب وتعدد الخلفيات

مثل الشباب محور اهتمام العديد من الباحثين و نشأت من خلاله اتجاهات فكرية و بحثية متنوعة "فالملاحظ ان السعي الى اعتبار الشباب مجالا بحثيا خصوصيا قد يعود الى كون الشباب نفسه محور اهتمام سياسي كما هو هدف لسياسات وبرامج خصوصية فهناك اذن طلب اجتماعي للاهتمام بالشباب وهو يطلق عليه G. Mauger بسوق البحوث حول الشباب " ¹³. و هذا ما جعل الكتابات تتعدد و تختلف فمنذ بداية الأربعينات من القرن العشرين، عندما برزت أفكار عالم

الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسنز Parsons، في مقالاته الأولى، التي خصّصها لتحليل الفئة الشبابية في الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك، حيث يبدأ الحديث عنها "باعتبارها ثقافة متميزة في مرحلة عمرية معينة إنّها ثقافة اللامسؤولية وخطّها المتميز هو الأخذ على سبيل المثال لا الحصر بكل ما هو جميل في طريقة العيش بالنسبة للجنسين فالذكور يفضلون التفاخر الرياضي في حين أنّ الإناث يفضلن المودّة أو المظهر اللائق عل سلطة الجذب والإغواء"¹⁴. تبدو فئة الشباب بالنسبة لبارسنز كنوع من الممارسة الاجتماعية أكثر ترميزا للواقع الاجتماعي تظهر مؤشراتنا من خلال اللقاءات العاطفية التي تجمع الإناث بالذكور، فثقافة الشباب والتي هي بالفعل ثقافة المراهقين نجدها بالمقابل تتجاوز ثقافة الطفل المبنية أساسا على السلطة المطلقة للوالدين، ومن جهة أخرى فهي لا تمثل ثقافة الراشدين لأنّها تنغمس في قيم ومعايير مضادة للانضباط والمسؤولية التي يعرفها عالم الراشدين مع اختلاف طفيف بين المراهقة والشباب يكمن في "أنّ المراهقين يبقون تحت التبعية والسلطة الأبوية النسبية (حماية الوالدين) فهي أقرب إلى مرحلة الطفولة منها إلى مرحلة الرشد"¹⁵. أما الشباب فإنّه يرتبط بنوع من الاستقلالية الجزئية أكثر حينما يحاول الحصول على سكن مختلف عن السكن العائلي، إلا أنّه يبقى ممّولا في البداية من طرف الأسرة ولكن هذه الفئة لا تمرّ بعد إلى مرحلة الرشد. كان يجب الانتظار إلى غاية منتصف الخمسينات من القرن العشرين، حينما شرعت الأمم المتحدة، من خلال مؤسسة اليونسكو، في إجراء دراسات سوسيولوجية حول الشباب خاصة في القطاع التربوي، ولكن القفزة الحقيقية في ميدان الدراسات الشبابية لم تبرز إلا بعد انتفاضات هذه الشريحة الاجتماعية سنة 1960 في الولايات المتحدة الأمريكية وفي شهر ماي 1968 في فرنسا ومن ثمّ في بلدان أخرى من العالم.

نسجل ابتداء من فترة الستينيات من القرن العشرين بروز وتألق الأعمال الفرنسية تحت مقاربات سوسيولوجية مختلفة من بينها أعمال موريس دوبيس M. Dobesse الذي يعتبر من أحد كبار المهتمين بسوسيولوجيا الشباب والمراهقة في المرحلة المعاصرة، حيث يرى أنّه كثيراً ما يتم الخلط بين مصطلح الشباب والمراهقة في حين أنّها لا يحملان المعنى نفسه، فالمراهقة ذات مدلول عام تعني مجموع التحولات الجسدية والسيكولوجية التي تحدث بين سني الطفولة والبلوغ وعندما نتحدث عن الحلم فإننا نقصد الجانب العضوي للمراهقة خاصة مع بداية الوظائف الجنسية، أما الشباب فيعني الجانب العضوي للمراهقة ويتجلى في الجيل الذي وصل إلى اكتمال النضج .

أما بالنسبة إلى عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو فإنّ تحليله السوسيولوجي يقوم على رفض التعريف الذي يستند على التحديد العمري ويرى أنّ الشباب مجرد كلمة " la jeunesse n'est qu'un mot " كما يذهب إلى القول بأنّ الحدود بين الأعمار أو الشرائح العمرية حدود اعتباطية "فنحن لا نعرف أين ينتهي الشباب وأين تبدأ الشيخوخة، مثلما لا يمكننا أن نقدر أين ينتهي الفقر لبدء الثراء"¹⁶.

هذا يعني من منظور بيار بورديو أنّ الفئات العمرية هي بالضرورة نتاجات اجتماعية تتطور عبر التاريخ وتتخذ أشكالاً ومفاهيم في ارتباط وثيق بالأوضاع والحالات الاجتماعية. يتعاطى بورديو مع ثنائية "الشباب/كهولة انطلاقاً من كونها علاقة عادية "فنحن دوماً شباباً وكهولاً بالمقارنة مع طرف ثان"¹⁷.

كما يرى بورديو أنّ الهدف من التقسيمات أو التصنيفات على أساس العمر والجنس والطبقة وإعادة إنتاج النظام بطريقة يحافظ فيها الجميع على موقعه؛ فالشباب والكهولة ليست معطيات بقدر ما هي نتاج بناء مجتمعي ليخلص إلى القول بأنّ: العلاقة بين العمر الاجتماعي والعمر البيولوجي هي عملية بالغة

التعقيد ولمزيد فهم العلاقة بين الأجيال، يشترط بورديو ضرورة فهم خاصيات اشتغال الحقل، الذي تنتمي إليه هذه الفئات .

ولإعطاء الشرعية العلمية إلى استنتاجاته النظرية، التي تقول بأنّ "الشباب مجرد كلمة" ونتاج اجتماعي يتحدّد بشروط اجتماعية معيّنة، يستند بورديو في ذلك بالبحوث الانثولوجية والأنثروبولوجية فمثلا لكل مجتمع قيمه وعقله الجمعي، الذي ينضبط ويحتكم إليه فإنّ له أيضا مفهوما خاصا للشباب وتحديد اجتماعيا لخصائصه وتحولاته بل إنّنا نجد داخل المجتمع الواحد أكثر من مفهوم للشباب، كلّ ذلك في اتصال وثيق مع ما يعتمل داخل هذا المجتمع ويتفاعل فيه، والنتيجة في النهاية شباب لكل مجتمع مختلف نوعا ودرجة عن شباب أي مجتمع ومنه تصل إلى التأكيد على أنّ لكل شباب قضاياها وأسئلته التي تتنوّع بتنوّع المجتمعات. ويرجع بورديو في نظريته حول الشباب إلى الأمثال الشعبية، وكذلك فلسفة أفلاطون التي تعطي لكل فترة أو حقبة عمرية وصفا خاصا ومميزا لها: فالمرحلة تكون عادة مقترنة بالعاطفة، في حين تتميز الكهولة بالواقعية.

إجمالا يجدر بنا أن نشير إلى أنّ فترة الشباب من وجهة نظر السوسيولوجيين تمثل "مرحلة جديدة من الحياة وهي بمثابة العبور التدريجيّ من مرحلة إلى أخرى الشّيء الذي لم يكن ممكنا في الماضي القريب لأنّ عمليّة المرور من مرحلة الطفولة إلى الكهولة كانت تتمّ بصفة مباشرة".

إنّ الإشكالية المطروحة في تعريف الشباب أنّها لم تعد ديمغرافية فقط وإنّما أصبحت في علاقة قوية بما هو اجتماعي، إذ لا يمكن البحث في إشكالية هذا المفهوم بفصله عن محيطه الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي الذي يوجد ضمنه "لأنّه لا يثير إشكالية التصنيفات الإحصائية فحسب، وإنّما أيضا التصنيفات السوسيولوجية التي ساهمت في إبراز ذلك الإشكال الاجتماعي الذي يختص به هذا

المفهوم "18". وبذلك يصبح العمر "من جهة أولى اجتماعيا يتماشى مع مجموع الوضعيات الاجتماعية، التي يمرّ بها الفرد والتي تتغيّر بدورها حسب دورة الحياة ومن جهة ثانية يمثل مقياسا قيميّا تتحدّد من خلاله السلوكيات المنتظرة والمتوافقة مع الوضعيات التي مرّ بها الفرد طيلة دورة الحياة التي يعيشها"19. وهذا ما يعطي للمقاربة السوسيولوجية لمفهوم الشباب وجهة نسبية مقارنة مع المقاربة العمرية السيكولوجية التي تشغل تحديدا على المراهقة واضطرابات النفسية، ليبقى الشباب مجرد كلمة أو نتاج اجتماعي تتحدّد بشروط مجتمعية معينة. لعلّ هذه الصعوبة المفاهيمية التي تطبع مفهوم الشباب هي التي جعلت بعض الباحثين يتخلّون عن مفهوم الشباب لصالح مفهوم أكثر إجرائية من الناحية العلمية ألا وهو مفهوم "المرور إلى سنّ الرشد"20.

إجمالا يمكن القول بأنّ الشباب يبقى مجرد ظاهرة اجتماعية محدّدة سلفا بشروط إنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي في مجتمع معين، واعتبارا لكونها ظاهرة أو معطى اجتماعيا فهي تشير إلى مرحلة عمرية تأتي بعد مرحلة الطفولة، وتلوح خلالها علامات النضج البيولوجي والنفسي والاجتماعي. وجدير بالذكر بأنّ كل تعريف اجتماعي للشباب يظلّ مرتبطا بشروط إنتاجه الاجتماعية، فكل عقل جمعي ينتج شبابه ويحدد احتمالات الارتقاء الاجتماعي إلى هذه الفئة أو السقوط منها، بحيث يبقى لدرجة التعقيد المجتمعي دور حاسم في تحديد الارتقاء أو السقوط. فعندما نتناول هذا المفهوم "ينتابنا شعور مشترك من التداخل وعدم اليقين في مستوى المفاهيم وفي مستوى المراحل العمرية التي أصبح من الصّعب تحديدها إحصائيا"21. لقد انتهى بعض السوسيولوجيين في بداية التسعينات إلى تحديد عمري للشباب يتراوح ما بين 15 و25 سنة و"هذا التحديد الذي تمّ تبنيه كإطار فردي في السنة الدولية للشباب لسنة 1985"22. ومن ثمّ يقوم مفهوم الشباب على معطيات ديمغرافية إحصائية، فأن تكون شابا يعني أن تنتهي إلى فئة

15-25 سنة أو إلى فئة 20-25 أو إلى فئة 25-30 سنة وهكذا تخدم المصلحة الاجتماعية في تحديدها للهرمية السكانية من ناحية ولا يساعد من الناحية السوسولوجية على فهم هذه المرحلة العمرية داخل المجتمع، لأنّ متغيّر العمر نفسه في هذه الفئة بالذات يصعب تحديده والحقيقة الوحيدة التي يمكن تعميمها هو أنّ مرحلة الشباب هي مرحلة وسطية ومرحلة انتقالية ومرحلة مرور إلى الكهولة... ولكن مقاييس الدخول لهذه المرحلة ومقاييس الخروج منها يصعب تحديدها وقياسها إذ ينتقل الفرد من مرحلة الشباب إلى مرحلة الكهولة، بحسب ما تحدّده المعطيات البيولوجية والديموغرافية، ولكن اجتماعيا قد لا يتحوّل فعليا "فقد يبلغ 24 سنة أو يتجاوزها ولكنه لم يندمج مهنيا داخل المجتمع أو مازال مزاولا لدراسته وغيرها من الوضعيات التي تضطره إلى أن يكون غير مستقلّ بذاته عن العائلة وبالتالي فإنّ التّحديد الاجتماعي لهذه المرحلة إذا ما طابقناه بالتّحديد الديموغرافي فإنّ الشّباب هنا لم يتجاوز بعد مرحلة المراهقة" ²³.

بهذا فإنّ المعطى الديموغرافي يقف عاجزا أمام تحديد واضح لمفهوم الشّباب "لأنّ تمطّط هذه المرحلة والتّأخر في الدّخول إلى الحياة المهنية وبعدها إلى مرحلة التقاعد قلب الموازين التي كانت تميّز المسيرة الحياتية الطبيعية" ²⁴، فأن تكون شابا لا يعني دائما نفس الشيء وليس من المؤكّد في أحيان كثيرة أن يعني شيئا. فهذا المفهوم يبني اجتماعيا وحسب وضعيات اجتماعية معيّنة ساهمت في تمطّط هذه المرحلة وذلك يعود لأسباب اقتصادية ولسياسات التّشغيل المتّبعة التي ساهمت في تأخّر الدخول إلى مرحلة ما بعد الشّباب "فال مؤشرات الطبيعية التي يمكن أن تدخل الشاب إلى مرحلة الكهولة أصبحت غير واضحة ومعقّدة، وغير مفهومة في أبعاد كثيرة" ²⁵.

ومن ثمّ فإنّ البحث عن مفهوم للشباب، من خلال مقاييس محدّدة بفترات عمرية أو مقاييس بيولوجية تجعل من الشباب فترة توجد بين البلوغ ونهاية النمو أو مقاييس تركز فقط على الخصائص النفسية التي يفرزها ما يدرج على تسميته بأزمة المراهقة أمر يتصف بالارتجالية وعدم الموضوعية. فهذه المداخل الضيقة تغفل عن الشباب أبعاده الاجتماعية لأنّ هناك من يؤكّد على أنّ مرحلة الشباب فترة تبدأ حينما يحاول المجتمع تأهيل الشخص، لكي يشغل مكانه وضعية اجتماعية ويؤدي أدوارا اجتماعية سواء داخل الأسرة أو خارجها وتنتهي هذه المرحلة حينما يستقر الشخص في شغل مكانته ويؤدي الأدوار التي أهل لها وهو ما يعني أنّه أصبح جزءا من النظام المستقر والثابت في المجتمع ومن ثمّ يتجه علم الاجتماع، في تحديده لمرحلة الشباب "مع بداية محاولة المجتمع تأهيل الشباب لاحتلال مكانة اجتماعية وممارسة دوره في مسيرة البناء والتنمية. وتنتهي تلك الفترة بعد أن يكون الشاب قادرا على تأدية دوره بشكل مقبول ضمن النظام الاجتماعي". لكن لا يمكن أن نعتبر أنّ الدور الاجتماعي (انتهاء الدراسة، الحصول على عمل والاستقلال عن العائلة) المحدد الوحيد لمرحلة الشباب. في المقابل هناك شقّ آخر من علماء الاجتماع الذي لا يعتبر أنّ الدور الاجتماعي وحده القادر والذي يحدّد لنا مفهوم الشباب في إطار الدراسة والمدرسة والدخول إلى الوظيفة والاستقلال عن العائلة. فالفشل الدراسي والعجز عن تأمين العمل ومتطلبات الحياة، أفرزت لنا مجموعة من الشباب غير قادر على أداء الدور بالشكل الذي يحدده النظام الاجتماعي بالرغم من حصوله على شهادة العضوية الاجتماعية، بحيث أنّ هناك من الدارسين ينظرون إلى الشباب على أنّهم فئة أقلّ تماسكا داخل المجتمع بسبب الإقصاء الاجتماعي الذي يعيشونه من حيث أزمة التشغيل والتكوين وهو ما عبّر عنه إدغار موران Edgar Morin بقوله أنّ "الشباب هو الحلقة الضعيفة"²⁶ وفي نفس السياق اعتبر الباحث إدريس بن سعيد بأنّ الشباب هو: "طاقة خلاقة

وهدها مغامرة كبيرة للمجتمع أنيًّا ومستقبلاً²⁷. لذلك يقترح أوليفيه غالان Olivier Galland تعويض مفهوم الشباب بمفهوم "الانتقال إلى سنّ الرشد" أو "الدخول في الحياة"²⁸ في إحالة إلى فكرة مفادها أنّ الشباب هو زمن اجتماعي له خاصية انتقالية. ومن ثمّ فإنّ الشباب هو فترة من الحياة تعتبر عموماً مرحلة انتقالية بين الطفولة وبين سنّ الرشد. وتعرّف الأمم المتحدة مرحلة الشباب²⁹ للذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة والرابعة والعشرين. وإذا كان العمر هو الدالة التي تحدّد سنّ الشباب فيما يتعلّق بالتنمية الشبابية، فالمفروض ألاّ نعتبر الشباب كفئة ديموغرافية متجانسة منفردة بل مجموعات فرعية متعددة التنوع وتشتمل على طيف واسع من المدارك والاتجاهات والقدرات.

عندما نتحدّث عن تمطط مرحلة الشباب اليوم في مجتمعاتنا من المهمّ أيضاً أن نتحدّث عن تأخر الدخول إلى مرحلة الكهولة وعن ثقلان الموازين بالنسبة إلى النموذج التقليدي للحياة الاجتماعية، التي كانت تمرّ أساساً بتكوين الدخول في الحياة النشيطة ونقص هذا العمل ثم التقاعد، ولكن الحراك الذي أصاب الحياة الاجتماعية والاقتصادية للأفراد قلب موازين هذه المراحل وهذا النموذج التقليدي، حتّى أنّ هناك العديد من الباحثين يتحدّثون عن مرحلتين فقط لحياة الفرد وهما مرحلة العمل والتقاعد وبالتالي "أصبح الحديث عن العمر والفئة العمرية غير مواكب لهذا الحراك الاجتماعي"، الذي كثرت فيه الحاجيات وخلقت حالة من الفوضى، وقد آلت هذه التغيّرات إلى انفرط أهمّ العقود المعنوية القائمة بين الفرد والجماعة، فالفرد يحاول دائماً أن يشبع حاجياته من خلال علاقته بالجماعة التي يشترك معها في الموروث الثقافي والمكتسبات الاقتصادية والسياسية.

لذلك فإنّ أبرز ما يميز المقاربة الاجتماعية، أنّها تهتمّ بمختلف العوامل المكونة للحقيقة الجماعية للشباب وتعدّ المقاربة الأكثر وضوحاً ووجاهة في نظر الكثيرين، لأنّها تنطلق من أنّ لكل مجتمع قيمه

وضوابطه الاجتماعية، التي تنتج مفهوما خاصا للشباب باستفهاماته وقضاياها ومشاغله. بمعنى أنّ كل فكر مجتمعي ينتج شبابه، ولكل مجتمع شباب يختلف عن شباب أي مجتمع آخر مع التأكيد على أنّ تعريف الشباب يقتضي أصلا الارتباط بالأوضاع والظروف والأحداث والسياقات غير المتجانسة، يرتبط فيها التعريف بما هو اقتصادي، وبما هو سياسي وفي علاقة بصياغة خيارات دولة سواء في التعليم أو في الصحة أو في الأمن الغذائي أو غيره، وبما هو ثقافي وفي علاقة بتزايد حدة الصراع بين الأجيال داخل المؤسسة الواحدة. وبالتالي، فإنّ دراسته تقتضي الانتباه إلى التنوع والاختلاف الذي يجنبنا "نوعا من اللغو الذي جعلنا نحشر داخل المصطلح نفسه عدّة عوالم اجتماعية بدل حشر ما هو بيولوجي في العالم الاجتماعي المتسم بالتنوع والتعدّد"³⁰. ومن ثمّ يختلف مفهوم الشباب من بلد إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر وذلك وفقا للمتغيّرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

خاتمة:

لم يحصر علماء الاجتماع كلمة الشباب ضمن مقاييس بيولوجية تتمثّل في تحديد زمني لفترة الشباب لأنّه من الاعتباري البحث عن مفهوم الشباب وفق مقاييس بيولوجية تجعل منه فترة توحّد بين البلوغ ونهاية النموّ. فهناك من يرى أنّ الشباب هو دخول الفرد إلى المجتمع الذي يحاول بدوره أن يندمج لينتهي بعد ذلك أن يحتلّ الفرد مكانة اجتماعية يكون فيها قادرا على تأدية الدور بشكل مقبول ضمن النظام الاجتماعي. في المقابل هناك شقّ آخر من علماء الاجتماع الذي لا يعتبر أنّ الدور الاجتماعي وحده القادر

والذي يحدّد لنا مفهوم الشباب وفي إطار الدراسة والمدرسة والدخول إلى الوظيفة والاستقلال عن العائلة. فالفشل الدراسي والعجز عن تأمين العمل ومتطلبات الحياة، أفرزت لنا مجموعة من الشباب غير قادر على أداء الدور بالشكل الذي يحدّده النظام الاجتماعي بالرغم من حصوله على شهادة العضوية الاجتماعية، بحيث أنّ هناك عدد من الدارسين ينظرون إلى الشباب على أنّهم فئة أقلّ تماسكا داخل المجتمع بسبب الإقصاء الاجتماعي الذي يعيشونه من حيث أزمة التشغيل والتكوين. لذلك "لا تعتبر فئة الشباب فئة متجانسة سوسولوجيا، فهي تشتمل على مجموعة من المتغيرات ذات التأثير في فئة الشباب وتحديد خصائصه، فهو يتوزّع بين مراهقين وشباب وبين ذكور وإناث، حسب خصائصهم التعليمية وأوضاعهم الأسرية وهرم الطبقية والاجتماعية، بين طبقة عليا ووسطى وبين عاملين وعاطلين، بين طلاب ومن أنهى تعليمه، وأنماط ثقافية نوعية للحياة بدوي / ريفي / حضري"³¹.

كخلاصة لذلك يمكن ملاحظة أن تناول الشباب من خلال المقاربة السوسولوجية و النفسية قد انتقل من مجرد توصيف الشباب كفئة عمرية محددة إلى تحليل و تفكيك الشباب كمرحلة ذات خصائص ومميزات ثقافية تميزه عن غيره من الفئات فقد لاحظنا كذلك أن التحليل الثقافي للشباب على مستوى اللغة، التواصل، الفن و كذلك تمثل الشباب لنفسه و لمجتمعه قد اتسع ليصبح البحث في نطاق معطى اجتماعي ذو أدوار داخل حركة المجتمعات.

- الهوامش:

¹ - دافيد ناشيماز و شافا فرانكفورت، طرائق البحث في العلوم الاجتماعية، ترجمة ليلى الطويل، دار بتر للنشر و التوزيع، دمشق سوريا، ط 2004، ص49

² - Marcel Mauss et Paul Fauconnet , **la sociologie objet et méthode** article sociologie extrait de la **grande Encyclopédie**, vol .30, Société anonyme de la grande Encyclopedie,Paris,1901.

³ - فيليب جونز ، النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية ، ترجمة محمد ياسر خواجه ، مصر العربية للنشر و التوزيع ، الطبعة الأولى 2010 ، ص 10

⁴ - Le Berton David **interactionnisme symbolique** ,paris ,presse universitaires de la France ,2004 ,p1

⁵ - فيليب جونز، مرجع سابق ص 10.

⁶ - دافيد ناشيماز و شافا فرانكفورت، طرائق البحث في العلوم الاجتماعية ، ترجمة ليلى الطويل، دار بتر للنشر و التوزيع ،دمشق سوريا، ط 2004 ، ص 61.

⁷ - نوم بوتومور، تمهيد في علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص.ص. 11-12.

⁸ - مارك جوان ومارغريت ميد، سن الرشد في أمريكا سلسلة علماء عباقرة 1999 ، ص. 119.

⁹ - للمزيد راجع: مارك جوان ومارغريت ميد، سن الرشد في أمريكا، مرجع سابق، ص. 76.

¹⁰ - نفس المرجع، ص. 79.

¹¹ -ق عمر محمد التومي الشيباني، الأسس النفسية والتربوية لرعاية الشباب، بيروت، دار الثقافة، 1973، ص 105.

¹² - Mead Margeret, **le fosse des generations**, les nouvelles relations entres les générations dans les annee 70, Renoel Gonthion, Paris, 1979.

¹³ - منجي الزيدي, الدخول الى الحياة الشباب و الثقافة و التحولات الاجتماعية , منشورات تير الزمان, تونس 2005 , ص 21.

¹⁴ - بدر الأغبري, "العولة والتحديات التربوية في العالم العربي", مجلة التربية, وزارة التربية والتعليم, البحرين, العدد الأول, السنة الأولى, أكتوبر, 2000.

¹⁵ - جوان مارك ومارغريت ميد, مرجع سابق, ص. 111.

¹⁶ - Pierre Bourdieu, **Question de la sociologie**, Paris, Minuit, 1984, p. 143.

¹⁷ - Ibid., pp. 143-154.

¹⁸ -¹⁸ Olivier Galland, **Qu'est ce que la jeunesse ?**, Paris, INSEE, 2000, p. 12.

¹⁹ -¹⁹ Olivier Galland, **Sociologie de la jeunesse, L'entrée dans la vie**, Op.cit, p.79.

²⁰ - جوان مارك ومارغريت ميد, مرجع سابق, ص. 81.

²¹ -²¹ C .Van de Velde, **Devenir adulte, Sociologie comparée à la jeunesse en Europe**, Paris, éd PUF, 2008, pp.110-111.

²² - Congrès Mondial sur la jeunesse, **Rapport final**, Paris, UNESCO, 1986, pp. 10-15.

²³ - Olivier Galland, **Qu'est ce que la jeunesse ?**, Op.cit, p. 22.

²⁴ - Xavier Caullier, **Agés mobiles et générations incertains**, Paris, Esprit, 1998, p. 4.

²⁵ - Pierre Bourdieu, "La jeunesse n'est qu'un mot ? ", In **Questions en sociologie**, Paris, Minuit, 1984, p. 143.

²⁶ - المنجى الزيدي، ثقافة الشارع: دراسة سوسيوثقافية في مضامين ثقافة الشباب، مركز النشر الجامعي 2007 ، ص. 18.

²⁷ - نفس المرجع نفس الصفحة.

²⁸ - Olivier Galland, **Sociologie de la jeunesse, l'entrée dans la vie**, Op.cit, p. 53.

²⁹ - <https://www.un.org/ar/global-issues/youth> consultée le 10/7/2021.

³⁰ - Pierre Bourdieu, **Question de la sociologie**, Op.cit, p.145.

³¹ - الأمم المتحدة، قرار الجمعية العامة A/RES/50/81، برنامج العمل العالمي للشباب حتى سنة 2000 وما بعدها.